كلام في السياسة!

ذهبت الأمُّ وابنها الشاب يصحبان الأخت، وزوجة الأخ الأكبر إلى بيت العروس التي رشَّحها له أحدُ أصدقائه... كانت قريبة ذلك الصديق من بعيد... لم يلتقِ الشاب بالفتاة من قبل سوى مرةٍ واحدةٍ... لم يكن قد تحقَّق له الاقتناع الكامل بها، ولم يكن تحقَّق اقتناعها الكامل به!

لم يكن يجمع بينهما سوى وحدةِ الهدف... وكان الهدف هو محاولة اللحاق بقطار الزواج الذي قد يتأخر، وقد يأتي أو لا يأتي... لا يزال أمام القطار محطات في مواعيد لم يتخطها بعد، لكنَّهما كانا على عجلة من أمرهما... ربما كان يدفعهما الخوف من سرعة مرور الأيام، والشهور، والسنين... وإنَّها لأبرز ملامح هذا العصر الذي لم يعد فيه للوقتِ بركة!

لم يزل الشابُّ في مطلع الثلاثينات، وكانت الفتاة في أواخر العشرينات... لا يزال المستقبلُ فاتحًا ذراعيه أمامهما، لكن كلاهما كان يُمنِّى نفسه أن يجدَ ما يغلق به باب مخاوفه من انفضاض سوق الزواج، والناس من حولهم بين متعجِّل ومسوِّف...

كانت الأمُّ تخشى على ابنها من الانزلاق في حبائل شَرَكٍ ليس له منه فكاك... خطوبة... شَبْكَة... هدايا... مواسم... في حين لا يزال أمامه في تجهيز شقته الكثير... ولا شك أن الخطوبة الآن ستعوِّقه؛ لأنَّها ستكبِّله بالنفقات... لذا كانت غير مقتنعة بالمهمة التي انطلقت على رأس ذلك الوفد لإنجازها... أمَّا الفتاة وأهلها فكانوا يتمسكون بالفرصة، فالارتباط ولو بدبلتين مؤقتًا يكفُّ ألسنة الأقارب والجيران عن الابنة، ويظهرها في صورة المطلوبة المرغوبة كثيرة الخطَّاب...

تقدَّم الوفدُ فدخلوا البيت من بابه في ظلٍّ ترحيب أصحابه، ثم اجتازوا الردهة الخارجية إلى حجرة الضيوف لتستقرَ جلستهم بها... كان الشاب ينتفخ فخرًا بما ملأ عيني أمِّه ومن معها من مظاهر الثراء الواضحة على أثاث البيت... كانت ولا شك ظروفهم المادية جيدة... كان ذلك واضحًا تمامًا للعيان!

تعلَّقتْ نظرات نساء العريس بوجه أمِّ العروس الذي بدا لهم بملامحه الهادئة مريحًا... تبادل الفريقان عباراتِ الترحيب والتحية لفترةٍ ليست بالطويلة تلتها لحظةٍ من الصمت، قطعتها طرقة أو طرقتين على باب الحجرة لتدخل فتاةٌ بيضاءُ ملفوفةُ الجسم معتدلةُ القوام تمسكُ صينية واسعة عليها من أصناف المشروبات ألوانًا... تقدَّمت نحوهم بحذرٍ... قدَّمت

المشروبات للحاضرين تباعًا... غمزت لها أمُّها، ففهمت الفتاة وبدأت بحماتها المنتظرة، ثم ختمت بالشاب الذي كان لا يزال يتابع قسمات وجه أمِّه... أهي تتجه إلى الرضا أم إلى السخـط؟!

جلست الفتاة إلى جانب أمِّه حذرة... بدأت عين الأمِّ الخبيرة تتفحصها من أخمص قدميها حتى منبت شعرها... من حركاتها، وسكناتها، وجميع لفتاتها تتلمَّس مواضع أنوثتها وخصوبة بدنها...

بدت أسارير وجه الأمِّ تنفرج قليلًا قليلًا، وقد تبيَّن الشابُّ ذلك منها فبدأ الارتياحُ يسكن قلبه... لتكن هذه هي تجربته الأخيرة مع الخطوبة... كانت تجربته الأولى مع ابنة عمِّه وقد فُسِخَت الخطبة في ظلِّ تفاقم مشاكل عائلية، ورواسب خصومة على الميراث والأرض... وقد تقدَّم بعدها لكثيرٍ من بيوتات الأسر المحترمة، لكنَّ الأمر لم يكن ليأخذ مساره الطبيعي؛ لأنَّهن جميعًا لم يَكُنَّ على مستوى خطيبته السابقة من التعليم والجمال...

كان الشابُّ يعلم جيدًا كيف تفكر أمُّه، وكان يحفظ كلامها عن ظهر قلب:

- لازم تاخد ست ستها! إن ما كنتش واحدة أحسن منها مالوش لزوم!!

أحسَّ الشابُ أن الأمور تسير هذه المرَّة في صالحه...

لم تزل الفتاة تتسربل بسربال حيائها وقد كست خدَّيها حُمرةُ الخجل، وارتسمت على شفتيها ابتسامة بريئة زادت وجهها إشراقًا...

كانت صاحبة الدار تتحدَّثُ بطلاقة فقد كانت هي الأم والأب معًا بعد وفاة الوالد في السنوات الأولى لطفولة العروس... استرسلت الأمُّ في حديثها عن ابنتها فذكرت الشيء الكثير عن مستواها الدراسي، والعلمي، والوظيفي... أدبها، وأخلاقها، وتربيتها... والفتاة لا تزال صامتة تبتسم... تحرك رأسها لا تنبس ببنت شفة...

أرادت أمُّ الفتى أن تخرجها من ذلك "الصمت الرهيب" فتوجَّهت بحديثها مباشرةً إليها وهي تنظر في عينيها... سألتها... فتلعثمت الفتاة، وارتبكت، وتلجلجت... كانت لديها مع نطق بعض الحروف مشكلات، ولديها زكَّةٌ واضحةٌ في آخر كلِّ كلمةٍ ترتكز على نهايتها فتبدو بطيئة النطق – شُخِّصت حالةً نفسية أكثر من كونها مشكلة عضوية-... أحست الفتاةُ بإحراج شديد حين حصرت الأمُّ كلَّ اهتمامها فيها، وبدت لا تلتفت إلى أحدٍ سواها، وكأنَّما تقيِّم حجم المشكلة التي سيترتب عليه أمرها بالقبول أو الرفض...

وأثناء الحوار الثنائي بين الأمِّ والفتاة حدجت الأمُّ ابنها الشاب بنظرةِ استنكارٍ بدت واضحةً للجميع... قرأتها الفتاةُ وأمِّها بوضوحٍ...

لم يكن أمام الأمِّ – وقد بدا عليها الامتعاض – سوى الكلام في موضوعٍ آخر لتخرج بصنعة لطافة من الإحراج... لم تجد أفضل من الموضوع الذي يشغل الناس، فانبرت في حديثها وكأنَّما نسيت لِمَ جاءت:

- رأيكم إيه في حال البلد؟! إحنا كُنَّا عايشين كويسين لغاية لَمَّا جم حبِّة عيال وعملولنا ثورة! قال ثورة قال! عشنا وشفنا!!

عقَّبت صاحبةُ البيت:

- على رأيك يا ختي.. ما لنا ما كُنَّا عايشين؟! ثورة إيه دي؟!

فاجأتها أمُّ الشاب بكلامها وبحدَّتها:

- عايشين إيه يا ست انتِ؟! هي دي كانت عيشة... إحنا ما كنَّاش لقيين وهمَّ بيهربوا الفلوس برَّة... الناس زهقت وكان لازم الحال يتغير!

تحيَّرت أمُّ الفتاةِ في تلك الأمِّ غريبة الأطوار... لم تعرف كيف ترضيها وقد أنصتت إلى حديثها المطوَّل، وأرادت أن تخرج من الموقف فتداركت الموقف سريعًا وقالت:

- يا دي السياسة اللي تعبت قلبنا! ما تسيبِك من الكلام في السياسة اللي واجعة دماغنا!

ردَّت الأمُّ محتدَّة:

- يعني إيه هو انتِ مش عايشة في البلد دي ولَّا إيه؟! ولَّا دي مش بلادنا ولازم يكون لنا رأي فيها؟!

سكتت صاحبةُ البيت هذه المرَّة ولم تُجِب، في حين نظرت الأمُّ في ساعة يدها وقالت بصورة مفاجئة:

- يااااااااه! إحنا اتأخَّرنا قوي! وأزعجناكم...

وزَّعت نظراتها الآمرةَ على الوفد الذي كانت تتزعمه، ثم همَّت واقفةً فتبعها الجمعُ المصاحب واتجهت إلى الباب قائلةً ومظاهر الفتور واضحةً على لهجتها وبكلماتٍ مقتضبة:

- لازم تردُّوا الزيارة قريب! اتفقنا! سلامو عليكو...

خرج الوفد على عجل... ولا تزال الفتاة جالسة تتذرعُ بالصمت... والجميع واجمون!

*****